فزان بين يدي الأتراك والطليان

للأستاذ أحمـــد رمزى بك

— ٢ —

العروبة الديطالى :

١٥ — فى ١ أكتوبر عام ١٩١١ رُوِّع العالم الإسلامى والعربى بخبر اعتداء صارخ قامت به إيطاليا على القطر الطرابلسى بغير إعلان حرب وبدون مسوغ . ولم يكن هناك نزاع أو مايشبه النزاع ، بل كان هناك أمن وسلام . ولم يعلم الناس بأمر مفاوضة انقطعت أو أمر اختلاف على مبدأ أو رأى أو قاعدة مما تختلف عليه الأمم والشعوب فيتخذ ذريعة للحرب ، بل لم يسمعوا بشئ أو بعض الشئ مما يحضر الأذهان لمثل هذا العدوان وينبه العقول لقدمه .

١٦ — وإنما سيرت إيطاليا بوارجها وجحافلها واستيقظ أهل المدن طرابلس وبنى غازى ودرنة الآمنة ، على أصوات المدافع ، تقذف عليهم الحمم والموت فى عقر دارهم . فياالله من يوم كنا صغاراً لا نعقل من الأمر شيئاً ، ولكننا لسنا الألم والأسى ، مرتسمين على وجوه الآباء والأهل والعشيرة والجيران فحزنت قلوبنا لحزنهم وتألمنا لآلامهم .

كنا صغاراً نلعب ونلهو — فتركنا اللهو وقاطعنا اللعب وشعر كل منا بأن ساعة فاصلة قد دقت فى حياته . ثم كان وقع الاعتداء شاملا وكان الجرح عميقاً ليس من الجراح التى تبرأ وتلتئم وتنسى مع الزمن .

ومرت بين الناس موجة دافعة ، من تلك الموجات التى تملأ النفوس والمشاعر ، وتخلق لها القلوب ، وارتجت مصر من أقصاها ، فمن كتب عليهم القتال من المجاهدين قاتلوا وقتلوا ، ومن لم يقدر على تحمله جاد بالمال عن نفسه وبنيه .

وأتى أنور ومعه حفنة ممن باعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وصعد عرب طرابلس وعرب برقة وعلى رأسهم السيد أحمد السنوسى ليكتبوا بدمائهم ملحمة من ملاحم المقاومين والموحدين فى دفاعهم وجهادهم واستماتتهم عن أرض أندلس فواجهوا الموت وعاينوا الهزيمة ، كما لاح لهم الظفر والمجد ، وقاتلوا وانتصروا واستشهدوا ، وامتلأت أيديهم بالعتاد والسلاح وأسرى العدو .

١٧ — وفجأة خفتت أصوات المدافع وعادت السيوف إلى أغمادها وسادت فترة هدوء على الجبهة . نعم لقد قامت حرب أشد هولاً ، هى حرب البلقان واتجهت الأنظار لمارك فى جبهة مقدونيا حيث تعرض ثلاثة ملايين من المسلمين للهجوم والقشتين وتساءل الناس عن المصير .

أما مقدونيا فرثاها شوقى بقوله .

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام

وأما ليبيا وبرقة فقد استحوذ عليهما الطليان ورتل قائل بشعر قديم[1] فقال :

أحقاً خبا من جـــورندة نورها
وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
ترى للاسى أعلامها وهى خشع ومنبرها مستبعد وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها وزائرها فى مأتم ومزورها

كلا لم تدم تلك المحنة طويلا إذ قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ودخلت إيطاليا الحرب ، فارتجت البلاد فعادت إلى الجهاد وبدأت ملحمة جديدة من تلك الملاحم الخالدة فى تاريخ العروبة التى تقاتل فيها فئة صغيرة فئة كبيرة — فيأتيها النصر من عند الله .

١٨ — لقد فرحت مصر وفرحنا بمعارك درنه وعين زارة[2] وغيرها من التى منّ الله بها على المجاهدين والرابطين وذوى البأس فى قتال الطليان وكان ذلك فى عامى ١٩١١ — ١٩١٢ . أما أيام الحرب العظمى فقد سار المجاهدون فيها من نصر إلى نصر ، بل كان يوم يمر يأتى إليهم نصر جديد من عند الله ، ولم تمض

(١) من رثاء الأندلس ومن نظم أبى جعفر من حادثة فى حوالى سنة ٩٠٤ هجرية أوردها الأمير شكيب أرسلان فى كتابه (الحلل السندسية) .

(٢) تبعد ١١٠ كيلو متراً من مدينة طرابلس وهى واحة .

١٩١٥ إلا وقد زحزحوا الطليان عن برقة واستعادوا فزان ، واقتحموا حصونهم ومعاقلهم واحدا بعد الآخر ، واستحوذوا على أسلحتهم وسياراتهم وأسروا كتائبهم المرتزقة من سود وحبش وغيرهم ، ساقوهم بأسلحة الطليان لقتال الطليان وتلك والله مقدرة لأهل برقة وليبيا .

وتتبعوا المهزمين وسدوا عليهم المنافذ والطرق . وفي يوم أصبحت العاصمة تحت أزير رصاصهم وغدا الساحل تحت سيطرتهم فأتتهم المؤن والذخائر من حيث شاءوا .

فهل رأيت دفعة كهذه الدفعة أو قوة من المستضعفين يملأها الإيمان والثقة في النفس والدعوة إلى الحق والقتال في سبيل الله عملت في القرن العشرين عملا يشبه هذا ؟ إنها وايم الله وقفة رائعة .

١٩ — وانتهت الحرب العظمى الأولى ١٩١٨ وتدخل الإنجليز بين الطليان وأهالي البلاد فاعترفوا بنظام ليبيا وسراحة وأقروا أمارة برقة ووقعوا المعاهدتين وضمنوا استقلال الداخل وخيل للناس أن عهداً من الطمأنينة والأمن قد أشرق .

وفي يوم من الأيام إذ موسوليني يضرب بمواثيق إيطاليا وضماناتها عرض الحائط وحنث بالإيمان المأخوذة وآثار حرباً ضروسا مهلكة يحاول بأساليبها إبادة شعب بأسره . كانت تعليماته وأوامره وقراراته واضحة لا شبهة فيها نليراجعها من يشاء يجدها في كتبهم وما نشره قوادهم .

وكان كبش الفداء شعب ليبيا .

٢٠ — قابل هذا الشعب ، صدمة الخيانة بشجاعة نادرة . رأى الحرب تفرض عليه في داره ، فواجهها كما يواجهها كل مقاتل كريم كتبت عليه التضحية فقدم بنيه وأحفاده . ضيق عليه الخناق بحصار من البر والبحر ، فتحمل وصبر . أوذي في حريته ومعاشه وماله ودكت بيوته ، ولكن لم ينزل على حكم ظالميه ، ولا تراجع عن مبدأ من مبادئه .

وانبعث إيطاليا سياسة العنف والتشريد ، فلم ترع شيخاً ولا مقعداً ولا طفلاً ولا وضيعاً وخربت المنازل وأفنت قبائل وحولت بقاعاً عامرة فجعلتها صعيداً جرزاً .

٢١ — هذا هو الشعب الأبي الكريم الذي حررته الديمقراطية في الحرب الأخيرة وانتخبت من اسمه عنواناً ومثلا لتحرير الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها . والذي بحثت من أفراده ورجاله المتطوعة ، وحاربت بهم ، وقالت للعالم هأنذا قد أرجعت الحق لأهله ، وأنقذت أول شعب وقع العدوان عليه وأزلت أثر الظلم والطغيان عن ماقيه .

وترقب أهل البلاد نعمة الخلاص ، وباتوا يعلقون الآمال ، فماذا يراد بهم اليوم ؟ إننا نسمع الكثير عن القمط . فمن قائل بعودة هذه الأرض البائسة إلى سادتها الطليان ، وآخر يقول بانتداب الغير عليهم كأن هذه البلاد خلو من السكان !

٢٢ — أنه ليهمنا نحن معاشر الأمم العربية ، شأن برقة وليبيا ، ويهمنا شعب هذه البلاد . لماذا ؟ لأننا منه وهو منا . إنها لصلات الدم والقربى والثقافة والتاريخ الحي ، لا التاريخ المتحجر الجامد ، ثم ما يوجبه هذا التاريخ المشترك من ذكريات الجهاد والنصر والهزيمة .

إننا نعبر عن رأيه ونقول ، هذا الشعب لا يريد شيئاً مستغرباً أو فوق متناول الإنسان ، وأنه يريد أن ينعم بحدوده وبلاده واستقلاله وحريته . إنه يطلب كياناً تحت الشمس شأنه شأن بقية الشعوب الصغيرة .

فهل تجاب دعوته ؟ وهل يجد لتضحياته حسابا ، وهل يعترف بمجهوده ؟ أم ستعرض بلاده للبتر والتقسيم ، ويوضع مصيره وحريته ليضارب بها في سوق توزيع مناطق النفوذ ؟!

٢٣ — كان عدد سكان ليبيا وبرقة العرب في مستهل عام ١٩١٠ أكثر من مليون نسمة ؛ وقد هبط هذا العدد إلى أقل من النصف ، على أثر سياسة التشريد التي اتبعتها الحكومة الفاشستية فكأن هذا الشعب قد بذل من الأنفس والأرواح دفاعاً عن كيانه واستقلاله ما لم يبذله الشعب الإيطالي طوال قرن من الزمن ثمناً لتحريره ! فهل رأيتم شعباً يضحي بنصف عدده في سبيل مثله العليا ؟.

هذا هو الشعب العربي في ليبيا وبرقة الذي ينتظر أن يكتب الناس تاريخ جهاده في الفترة بين حربين عالميتين .

والآن أعود بحضراتكم إلى نهاية عام ١٩١٤ أي بعد إعلان الحرب الأولى في الأشهر التي كانت فيها إيطاليا على الحياد .

(يتبع) أحمد رمزي

(ملحوظة) : سبق للرسالة أن نشرت مقالا عن ليبيا بقلم أحمد رمزي وقد استعان به في محاضرته هذه .